مَركز الشَّيخ عَلِي الغِريَاني للكِتابْ
Sheikh Ali Al-Gharyani Book Center

www.shabcenter.ly
info@shabcenter.ly

مقال

فلسطين.. والتحول التاريخي

أ. زهير عطوف

فلسطين.. والتحول التاريخي

حققت المقاومة الفلسطينية مفاجأة كبيرة بتوجيهها إنذارا قويا لقوات الاحتلال الإسرائيلي يوم 10 مايو/أيار تمهله فيه ساعتين، إما أن يوقف انتهاكاته في المسجد الأقصى وحي الشيخ جراح وإلا فإنها ستطلق صواريخها على القدس. ورغم أن المواجهة لم تستمر أكثر من 11 يوما؛ إلا أنها اكتنفت تطورات مختلفة وانبثقت عنها دلالات ذات مغزى وتأثير على المستقبل القريب والبعيد.

هذا التطور المفاجئ كان عاملا مهما لتستعيد فلسطين من جديد موقعها المتقدم في المشهد العربي والإسلامي والعالمي. بعدما اعتقد الإسرائيليون بأنهم وضعوا الفلسطينيين في دائرة مغلقة، بعد أن نسيهم العرب قبل أن ينساهم العالم المشغول بحربه ضد جائحة كورونا، فإذا بهم يخرجون من تحت الأنقاض بعزيمة جديدة وإرادة فولاذية وإيمان بضرورة مواصلة النضال والمقاومة. مؤكدة أن الحق الفلسطيني لن يفرط فيه أصحابه مهما اختلت الموازين، وضعفت الذاكرة العربية والإسلامية.

التضامن الغربي مع فلسطين:

تجسد الانتصار الذي حققته المقاومة في تمكن الشعب من الصمود ضد عدو شرس وهمجي، استعمل أسلحته المتطورة دون مراعاة الحد الأدنى من أخلاقيات الحرب، وتمظهر الانتصاركذلك في تنامي التأييد للقضية الفلسطينية على مستوى الفعاليات الشعبية، علاوة على ان هذه المعركة نجحت في تحريك ضمائر عشرات الآلاف من الغربيين الذين تظاهروا في عدة مدن بعد أن صدمتهم مشاهد قتل الأطفال والنساء والمدنيين بأسلوب بارد. وأظهرت الاحتجاجات الواسعة في عواصم عالمية حجم تنامي التعاطف مع الفلسطينيين الذي تجاوز رواية الاحتلال الكاذبة.

وفي هذا الإطار وفي سابقة داخل أوروبا، أقرّ البرلمان الأيرلندي قانونا يعدّ

المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية ضما فعليا غير قانوني، وهو القانون الذي حاز إجماع أحزاب جمهورية أيرلندا، فضلا عن إدانتها تهجير السكان الفلسطينيين، وأن التوسع الاستيطاني هو انتهاك جسيم للقانون الدولي، وتعتبر هذه المذكرة انتصارا لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره.

ولا يختلف الوضع كثيرا في دولة أسكتلنديا، حيث القضية الفلسطينية تحظى بدعم شعبي وسياسي يقوده الحزب الوطني الأسكتلندي، الذي يقود البلاد حاليا، بالإضافة إلى ان المسؤولين هناك لا يتورعون عن توجيه انتقادات واضحة للاحتلال، فضلا عن المظاهر الشعبية في دعم فلسطين كارتداء البرلمانيين الكوفية الفلسطينية.

هذا التطور الغير المسبوق في دعم القضية الفلسطينية في أيرلندا وأسكتلنديا، هو نتاج مسار تاريخي من مقاومة الشعب الفلسطيني للاحتلال الاسرائيلي، مما جعل هذه الدول تتحرك لدعم ونصرة الملف الفلسطيني، هذا التضامن تجاوز من حيث سقفه التضامن لدى بعض الدول العربية مع الملف نفسه.

هذا الوضع من التضامن العالمي الغير مسبوق، الذي حدث في الأيام الأخيرة يؤكد بجلاء أن فلسطين قضية لن تموت أو تدفن ويلقى بها في مزبلة التاريخ. قد تضعف، قد ينقسم أهلها، قد يُقتل قادتها، قد تخسر مساحات من الأرض، لكن في النهاية وبشكل غير متوقع تعود بقوة إلى الحياة وإلى الذاكرة، وتستفز الضمير العالمي والغربي من جديد.

المعركة مع الاحتلال و تغيير التوازنات:

إن الحصيلة البشرية للعدوان الصهيوني في الجانب الفلسطيني حوالي 280 شهيدا وآلاف الجرحى في كل من غزة والضفة والأراضي المحتلة عام 1948، مقابل 12 قتيلا من الكيان الصهيوني وعشرات الجرحى، فإذا ما أضيف لذلك الضرر في المباني والمؤسسات والبنى التحتية ستوحي هذه المقارنة بانتصار كاسح للاحتلال وانكسار كبير للمقاومة، لكن ذلك غير صحيح.

لأن المنطق العددي أو الكمي لا يصلح معيارا سليما لتقييم نتائج حركة مقاومة مع محتل. وإلا لما نشأت أي حركة تحرر في وجه احتلال عبر التاريخ. فحركات التحرر في الغالب أقل عددا وإمكانات من الناحية المادية والعسكرية

من محتليها، وإنما تبني إستراتيجيتها على المدى المتوسط والطويل، وعلى استنزاف العدو بحيث تصبح كلفة استمرار الاحتلال أفدح بالنسبة له أو لداعميه.

وبالتالي ما حصل هو وضع القضية الفلسطينية في سياق مختلف، فإقدام الآلة العسكرية الإسرائيلية على ارتكاب هذا الحجم الضخم من الجرائم والتدمير العشوائي للبنايات وقتل المدنيين بالجملة بما في ذلك النساء والأطفال؛ دليل على الارتباك وتخبط المحتل. فالقادة الإسرائيليون لا يزالون يعتقدون بأن القتل وتدمير البنى التحتية وكل مظاهر العمران من شأنه أن يثير الرعب، ويطمس الحقائق، ويدفع الفلسطينيون نحو الاستسلام.

وهذا يمثل استمرارا لما كانت تقوم به إسرائيل في حروبها السابقة حتى مع الدول المجاورة كلبنان، لكن هذه السياسة بالذات هي التي خلقت لدى هذه الشعوب المستهدفة إرادة المقاومة، وجعلتهم يتصدون لهذا الكيان، ويسعون بكل قوة لتحرير بعض الأراضي المغتصبة من الكيان الإسرائيلي كغزة.

كما تمكنت المقاومة من خلال هذه المواجهة من احتجاز الإسرائيليين كرهائن داخل الملاجئ في الأراضي المحتلة، بعد إطلاقها دفعات صاروخية كبيرة على المستوطنات والأراضي المحتلة. وحصل الربط الذي من الصعب أن ينفصم بين القدس وغزة، أو الترابط بين استهداف القدس والأقصى واستخدام القوة العسكرية للمقاومة، بمعنى أنه خلال هذه الحرب ظهر جليا بأننا نشهد إستراتيجية فلسطينية جديدة لتعزيز الترابط والتآلف بين ساحات مقاومة المحتل، وتوسيع نطاق ساحات الصراع في نفس الوقت. وفي انتشار المواجهة بشكل واسع ومتزامن؛ حيث عمل الفلسطينيون في وقت واحد في القدس وغزة والضفة الغربية والتجمعات العربية داخل الأراضي المحتلة عام 1948. وهي معادلة جديدة من الصعب على غزة تجاهلها وسيكون على الاحتلال وضعها في الحسبان قبل أي خطوة استفزازية كبيرة في المستقبل.

وفي ذات السياق كشفت «حرب سيف القدس» أيضا عن مدى ما تتمتع به المقاومة من الإدارة الجيدة للصراع، وقدراتها الاستخبارية، وقراءتها لما يفكر فيه العدو ويخطط له، وتغلبها على ظروف الحصار المفروض عليها إسرائيليا ومصريا، وزيادة قدراتها الصاروخية من حيث المدى والقدرة التدميرية، وتطويرها لطائراتها المسيرة التي استخدمت في الاستطلاع وضرب أهداف

الكيان الصهيوني، وكذلك سلاح الغواصات المسيرة الذي أنتجته محليا.

علاوة على دقة صواريخ المقاومة الفلسطينية، الذي يعتبر الأكثر إثارة وشكل تحولا مهما في هذه الحرب، فإنه عندما أطلقت هذه الأنواع من القذائف في الماضي كانت غير دقيقة إلى حد كبير؛ حيث كان معظمها إما يهبط في البحر أو ينفجر في الجو. أما الصواريخ التي أُطلقت في معركة «سيف القدس» فلم تكن قوة رؤوسها التدميرية كبيرة فحسب بل كانت دقيقة أيضا إلى حد لم يتصوره الكيان الصهيوني نفسه.

في غضون هذه الحرب عادت المبادرة والسيطرة على الأحداث إلى المقاومة، فهي التي حددت متى يبدأ الصراع، ومتى ينتهي. أما إسرائيل فقد كانت ترد بشكل متخبط مستهدفة المدنيين والمنشآت السكنية. ومنه فإن هذه المعركة عززت من مكانة المقاومة كلاعب إقليمي أساسي.

في المحصلة إن ما جرى على الأراضي الفلسطينية يعتبر حدثا مفصليا في تاريخ الصراع مع الاحتلال الإسرائيلي، وسيكون له تأثيراته المستقبلية على المنطقة والإقليم. حيث فقدت إسرائيل قدرتها على ردع غزة. فقد تجرعت في معركة «سيف القدس» عدة مفاجآت متتالية لم تخطر لها على بال.

إن الكيان الصهيوني لا يريد سلاما، ولن يسمح بقيام دولة فلسطينية، ولن يترك القدس أو حتى جزءا صغيرا من القدس للفلسطينيين، وهو مستمر في تهويد المدينة المقدسة الى اليوم، وفي بناء المستوطنات دون توقف. لذلك فإن أي نجاح، بصدّ عدوان، أو كسر هيبة الاحتلال، أو نقض معادلات ردعه، أو إبطال أهدافه، أو هزّ صورته في عيون شعبه وجماهير أعدائه ومقاوميه، أو كشف نقاط ضعفه، أو إظهار قدرة المستضعفين على الفعل، أي نجاح من ذلك، يراكم على مجموع أفعال المقاومين، ليصب في معركة النصر الحاسمة، طالما أنّ المعركة تُكسب بالتراكم.